بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيِّدنا وإمامنا وأُسوتنا ومعلِّمنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومَن اتَّبع هداه .

(وبعد)

فإن الله تعالى قد خلقنا لنعرفه ونعبده وحده لا شريك له ، ونقوم بخلافته في أرضه ، وهي المنزلة التي اشرأبَّت إليها أعناق الملائكة أن تُناط بهم ، قائلين : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) ، فخصَّ الإنسان بالاستخلاف في الأرض ، ومكَّن له فيها ، وجعل له فيها معايش ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها ، وجعل الإنسان مُبتلًى فيها ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان:٢) .

وممَّا ابتلاه الله عز وجل به : أمانة التكليف ، وهو إلزام ما فيه كُلفة ومشقَّة ، وهي الأمانة التي عُرضت ﴿ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٢،٧٣).

وكان من تمام نعمة الله على الإنسان : أنه أمدَّه بكلِّ ما يُعينه على أداء مهمَّة العبادة لله والاستخلاف في الأرض ، وبلوغ كماله المُقدَّر له ، فمنحه العقل الذي به يُفكِّر ، والإرادة التي بها يُرجِّح ، والقدرة التي بها يُنفِّذ ، وآتاه من المواهب

والمَلَكات النفسية والروحية ما لم يؤته مخلوقًا آخر ، وأنزل عليه الكتب ، وبعث له الرسل ، مبشِّرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل .

كما كان من تمام الابتلاء للإنسان : أن سلَّط عليه نفسه التي بين جنبيه ، وهي أمَّارة بالسوء ، تحبُّ العاجلة ، وتَذَرُ الآخرة ، وسلَّط عليه عدوَّه إبليس اللعين (الشيطان) وجنوده ، وقد حلف أمام الله جلَّ وعلا : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧) .

ومن يومها والمعركة دائرة بين الشيطان والإنسان ، وقد حذَّر الله منه أشدَّ التحذير : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر:٦) .

وقام الأنبياء وورثتهم من العلماء بمهمَّتهم في تنبيه الخلق من غفلتهم ، وإمدادهم بالأسلحة التي تُعينهم في معركتهم ، حتى لا يستحوذ عليهم الشيطان فينسيهم ذكر الله ، وينضمُّوا إلى حزب الشيطان ، المجافي والمعادي لحزب الرحمن ، وركْب الإيمان . وبيَّنوا ما عهد الله إليهم من عبادته عزَّ وجلَّ ، ومعاداة عدوِّه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (يس:٦٠،٦١).

فالله تعالى يريد من عباده أن يعبدوه وحده ، ولا يشركوا بعبادته أحدًا ولا شيئًا ، وذلك باتِّباع منهجه الرباني الذي شرعه على ألسنة رسله ، وخاتمهم محمد ﷺ ، والشيطان يريدهم أن يتَّبعوا منهجه ، ويَدَعوا منهج الله ، فيَدَعوا الهدى إلى الضلال ، والنور إلى الظلام .

ومن هنا قام الرَّبَّانيون في كلِّ جيل ، متأسِّين برسول الله ، مقتبسين من مشكاة نبوَّته ، ليردُّوا الناس إلى الله ، ويسوقوهم إلى الجنة ، مُرغِّبين ومُرهِّبين ، وألاَّ

تغرُّهم الحياة الدنيا ، ولا يغرُّهم بالله الغرور ، وأن يسيروا في طريق عبادة الله ، مخلصين له الدين حنفاء ، وعبادة الله هنا تشمل العبادة الظاهرة ، والعبادة الباطنة .

وإذا كان (علم الفقه) يُعنى (بالعبادات الظاهرة) من الصلاة والزكاة ، والذكر والتسبيح والدعاء ، فإن (علم السلوك) أو (فقه السلوك) يعنى (بالعبادات الباطنة) من النية والإخلاص ، والتوكُّل والتوبة إلى الله ، والرجاء والخوف ، والشكر والصبر ، والورع والزهد ، والمراقبة والمحاسبة ، وغيرها من منازل السائرين ، ومدارج السالكين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين) ، حسب تعبير الإمام الهروي .

ونحن نعلم أن القرآن قد جعل النجاة في الآخرة منوطة بسلامة القلب : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٨،٨٩)، والقلب السليم ، هو السليم من الشرك والنفاق ، والكِبْر والحقد والرياء ، وآثار البدع والمعاصي .

كما أن الجنة لا يدخلها إلاَّ مَن كان ذا قلب منيب : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ (ق:٣٢-٣٤)، وفي الحديث المتَّفق عليه : « ألا إنَّ في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه »[1] .

هذا ، وقد كنتُ أصدرت أربعة كتب في سلسلة (فقه السلوك) أو (الطريق إلى الله)، حول : الرَّبانية والعلم ، النيَّة والإخلاص ، التوكُّل ، والتوبة إلى الله ، واليوم أُتبعها بخامس عن (الورع والزهد)، ولعله كان ينبغي أن يُقدَّم على بعض ما نُشر ، ولكني جرت عادتي أن أكتب فيما يُيسِّر الله لي الكتابة فيه ، ثم أنشره على حاله ، وإن لم يكن على الترتيب الذي أحبُّه . ولعل ذلك يحدث ، بعد أن تتمَّ أجزاء السلسلة ، فإما أن أرتِّبها أنا إن قدَّر الله لي ذلك ، أو يُرتِّبها من بعدي مَنْ يقوم على جَمْع تراثي[2]، وكلُّ شيء عند الله بأجل مُسمَّى .

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير ، وسيأتي تخريجه صـ٣٤ .

(٢) أطال الله عمر شيخنا الإمام ونفع المسلمين بعلمه (الناشر) .

وهذا الجزء الخامس في (الورع والزهد) من هذه السلسلة المباركة (الطريق إلى الله عز وجل)، جعلته في تمهيد وثلاثة أقسام وخاتمة.

أما التمهيد ، فقد تحدثت فيه عن أهداف الناس في الحياة الدنيا.

وأما الباب الأول ، فقد جعلته في فصلين :

الفصل الأول : في تعريف الورع لغةً واصطلاحًا ، تكلَّمت فيه عن الورع .

والفصل الثاني : في حقيقة الورع ومراتبه .

وأما الباب الثاني ، فقد تكلَّمت فيه عن الزهد ، وجعلته في أحد عشر فصلاً .

الفصل الأول : في التحذير من فتنة الدنيا ، وأوردت فيه جملة من آيات القرآن وسنة النبي ﷺ .

والفصل الثاني : في المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة.

والفصل الثالث : فيما ينكره الإسلام من الدنيا.

والفصل الرابع: تعريف الزهد عند علماء السلوك.

والفصل الخامس : حقيقة الزهد في الدنيا ومقوماته ، وهو يقوم على مقومين أساسيين : إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا أولاً ، والإعراض عن اتباع الشهوات ثانيًا .

والفصل السادس : موقف الناس من الزهد في الحياة الدنيا .

والفصل السابع : عقبات في طريق الزهد ، وذكرت فيه أربع عقبات : الغفلة ، وطول الأمل ، وانتشار القيم المادية ، وافتقاد القدوة .

والفصل الثامن : بواعث الزهد ، وذكرت فيه أربعة بواعث : ذكر الموت ، والاعتبار بمصاير أهل الدنيا ، واستحضار الآخرة ، ومعرفة قيمة الدنيا .

والفصل التاسع : ما ليس من متطلَّبات الزهد ، ذكرت فيه أربعة أمور : الإعراض عن الزواج ، والعزلة عن المجتمع ، وترك العمل لكسب الدنيا ، والإعراض عن الحياة الطيبة .

والفصل العاشر :حدود الزهد في ضروريات الحياة الدنيا في نظر الإمام الغزالي .

والفصل الحادي عشر : وقفات نقدية أمام الغلاة في الزهد ، وقفت فيه ثلاث وقفات : الأولى : أنَّ مصطلح الزهد والزهاد ليس قرآنيًا ولا نبويًا . والثانية : زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا . والوقفة الثالثة : انتقدت فيها منهج الإمام الغزالي .

وأما الباب الثالث من الكتاب ، فقد أوردت فيه نماذج من زهد الخلفاء والعلماء وورعهم . وجعلته في خمسة فصول ، الأول : في زهد عمر بن الخطاب وورعه ، والثاني : في زهد علي بن أبي طالب وورعه ، والثالث : في زهد عمر بن عبد العزيز وورعه ، والرابع : في زهد إبراهيم بن أدهم وورعه ، والخامس : في زهد عبد الله بن المبارك وورعه . وأما الخاتمة فقد استقريت فيها أهم النتائج والاستنباطات والتحقيقات العلمية والوقفات التحليلية .

وقد تميَّز هذا الجزء من هذه السلسلة بمزيد من العناية في عدد من الجوانب ، منها : قيام الإخوة العاملين في المكتب العلمي بتوثيق النقول وتخريج الأحاديث على المنهج الذي رسمته في كتبي الأخيرة ، وذكرته في عدد من المقدِّمات . وعنى الأخ الشيخ وليد أبو النجا بمراجعة الكتاب وتدقيقه .

وقد حظي الكتاب كذلك بمراجعة الأخ الشيخ مجد مكي ، الذي قام بتصحيح الكتاب والعناية بترقيمه ، وأعاد النظر في ترتيبه ، وأضاف عددًا من العناوين الجانبية للمباحث الهامة في الكتاب ، لتدل القارئ على مضمونها ، قبل الدخول في قراءتها ، فتكون أوفى فهمًا ، وأيسر معرفة إذا أراد الرجوع إليها .

وأرجو الله أن يُبارك في الوقت والعمر لإتمام هذه السلسلة المباركة (في الطريق إلى الله) ، وسيصدر قريبًا ـ بعون الله ـ : المراقبة والمحاسبة ، ويتلوه الرجاء والخوف ، ثم الرضا والشوق ، والأنس والمحبة .

أسأل الله جلَّ ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ، أن ينفع بهذه السلسلة من (فقه السلوك)، وبغيرها من كلِّ ما يُقرأ ويُسمع ويُشاهد من عملي ، وأن يجعلها نورًا لمَن استهدى بها ، وطَوْق نجاة من النار لمَن اعتصم بها ، وهاديًا إلى الله بإذنه ، وأن يجعلنا من عباده المقبولين عنده ، المرضيين لديه ، ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٧)، ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٨) ، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤٠،٤١) .

الدوحة في : محرم ١٤٣١هـ — الفقير إلى الله تعالى

الموافق يناير ٢٠١٠م — **يوسف القرضاوي**

openkandl.com

تمهيد

أهداف الناس في الحياة الدنيا

للناس في هذه الدنيا أهداف شتَّى ، فهم بالنظر إليها أنواع :

منهم مَن لا يعرف له غاية يعيش لها ، ولا يعرف لحياته معنى ، فهذا ميِّت وإن عُدَّ في الإحصاء مع الأحياء . فهؤلاء الذين قال عنهم الإمام الغزالي : (يأكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا ! وهذا مذهب الفلاَّحين والمحترفين ، ومَن ليس له تنعُّم في الدنيا ، ولا قدم في الدين . فإنه يتعب نهارا ، ليأكل ليلا ، ويأكل ليلا ليتعب نهارا ! وذلك كسير السواني ـ الدواب في الساقية ـ فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت !)[1] .

ومنهم مَن يعيش لغايةٍ قريبة ، هي أن يتمتَّع بحياته ، ويُشبِع شهواته ، فهو يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويركض وراء اللذَّات الحسيَّة ، والمطالب الماديَّة الدنيويَّة ، ثم يَنفُق كما تَنفُق الدابة ، فهو أشبه بمَن قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢) .

ومنهم مَن عرَف أنه خُلق لغاية ، وأنه يعيش لرسالة ، يحيا بها، ويموت عليها ، ويعمل بها ، ويعمل لها ، وهذا هو الذي يستحقُّ الحياة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة .

وهذا النوع أصناف كذلك ، ودرجات بعضها فوق بعض ، وهم الذين قال فيهم القرآن : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

(فاطر:٣٢).

---

(١) إحياء علوم الدين ، للغزالي (٣/٢٢٨) .

وهؤلاء الذين يجاهدون أنفسهم في سلوكهم في الطريق إلى الله ، ليصلوا إلى جنته ورضوانه في الآخرة ، وإلى سكينة النفس والحياة الطيبة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٧).

وقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨) ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٤) .

وإلى هذا النوع الأخير بأصنافه ودرجاته نكتب هذه السلسلة في (فقه السلوك) ، أو في الطريق إلى الله ، التي ظهر منها أربعة أجزاء منذ سنوات ، ثم توقَّفت لانشغالي بموضوعات أخرى ، منها كتابي في (فقه الجهاد) ، الذي أسأل الله تباركت أسماؤه أن ينفع به أمتنا في مسيرتها ، ويُفقِّهها به في دينها ورسالتها ، ويجمع كلمتها على الهدى ، وقلوبها على التقوى ، ويؤلِّف بينها على نصرة دينه بالجهاد الحقِّ ، كما بعث الله به رسوله الكريم ، وأنزل به كتابه المبين ، لا كما يتوهَّمه الغلاة والمفرِّطون .

الفرق بين الورع والزهد :

وفي هذا الجزء نتحدَّث عن محطَّتين مهمَّتين من محطَّات الطريق إلى الله ، وبعبارات رجال السلوك : منزلتين من منازل السائرين إلى الله ، وإلى عبادته ، وهما : الورع والزهد ، فما الفرق بين الورع والزهد ؟

قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المالكي (ت : ٥٢٠هـ) : (الورع هو : اجْتناب المُحرَّمات والمُتَشابهات . قال رسول الله ﷺ : « الحلال بيِّنٌ ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور متشابهات ، فمَن اتَّقى المشتبهات استبرأ لدينه وعِرضه» الحديث[1] ، فاجْتناب المُحرَّمات واجب ، واجتناب الشُّبهات مستحبٌّ .

---

(١) سيأتي تخريجه صـ ٣٤ .

ولا ينطلق اسم الورع إلا على مَن اجتنب المُحرَّمات والمشتبهات .

والزهد هو : ما يبعث على اجتناب المحرَّمات والمشتبهات ، وترك التنعُّم بالمباح من الشهوات . فكلُّ زاهد ورِع ، وليس كلُّ ورع زاهدًا ، فالورع أعمُّ من الزهد) [١] اهـ .

وكذلك الورع يسبق الزهد ، فهو مُقدِّمة له .

قال العلاَّمة ابن القيم : (سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : الزهد : ترك ما لا ينفع في الآخرة . والورع : ترك ما تخاف ضرره في الآخرة .

قال ابن القيم : وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها)[٢].

أهمية الورع والزهد :

وقال الحسن : مثقال ذرَّة من الورع ؛ خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة[٣]!

وهو يشير الى أهمية أعمال القلوب ، بالنسبة الى أعمال الجوارح .

وقال سلمان (الفارسي) : جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد[٤].

وقال أبو واقد الليثي : تابعنا الأعمال ، فلم نجد شيئًا أبلغ في طلب الآخرة من الزهد في الدنيا[٥].

وقال أيضًا : ما وجدنا شيئًا أعون على أخلاق الإيمان من الزهادة[٦].

---

(١) الجامع من المقدِّمات لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي .

(٢) مدارج السالكين (١٠/٢) ، طبعة دار الحديث ، القاهرة .

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢٢/٢) .

(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٥٩٧) ، وعزاه لابن لال ، عن سلمان ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٣٢) ، ونسبه ابن القيم في مدارج السالكين لأبي هريرة (٢٢/٢) .

(٥) رواه هناد في الزهد (٥٥٨) ، ووكيع في الزهد (٢) ، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٧٦٧) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٨٢) .

(٦) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٥٨) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٨٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧٨/٦٧) .

وقال ابن المبارك : ما رأيت شيئًا يتقوَّى به على العبادة مثل الجوع والزهادة[1] .

لماذا خلقنا الله عزَّ وجل ؟

فممَّا لا ريب فيه ، ومما علَّمناه الإسلام في قرآنه العظيم ، وسنَّة نبيِّه الكريم : أن الله تعالى خلقنا ليمتحننا ويبتلينا بالإيمان به ، والإسلام له ، وتحقيق العبودية له ؛ لنعبده وحده لا نتعبَّد لأحدٍ سواه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

وكذلك لنقوم بخلافته في أرضه ، نقيم فيها الحقَّ والعدل والخير والصلاح ، ونطارد فيها الباطل والظلم والشرَّ والفساد . كما قال تعالى للملائكة حين أراد خلق آدم عليه السلام : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) .

كما خلقنا عزَّ وجلَّ لنُعمِّر أرضه ونصلحها ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١) ، ومعنى ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ : أي طلب إليكم أن تَعْمُروها ولا تخرِّبوها ، وأن تصلحوها ولا تفسدوها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (الأعراف:٥٦) ، أي : بعد أن خلقها الله صالحةً لسُكناكم ولمعيشتكم ، ولإعانتكم على رسالتكم فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠) ، وقال تباركت آلاؤه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك:١٥) .

كيف نُحقِّق العبوديَّة لله سبحانه؟

ولكي نقوم بعبادة الله وخلافته وعمارة أرضه ، لا بدَّ لنا أن نتَّبع منهجه الذي شرعه لنا في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، الذي أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كلِّه .

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٥٩) .

ومقتضى هذا : أن نتحرَّر من عبوديّتنا لأهوائنا أو أهواء الآخرين ، لنعبد الله وحده ، ولننقاد لشرعه بكلِّ ما فيه من أوامر ونواهٍ ، وعقائد وأحكام . فإنما مهمَّة الشرع أن يُخرِج الإنسان من اتباع هواه أو هوى سواه ، إلى اتباع هدى الله ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص:٥٠) .

حقيقة الدين :

وهذا هو حقيقة الدين : أن تسلم وجهك إلى الله ، وتُحسن عملك في رضا الله ، ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (لقمان:٢٢)، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء:١٢٥).

ابتلاء الله عباده بالتكليف :

والدين قائم على التكليف الذي ابتلى الله به عباده ، وهو التزام ما فيه كُلفة ومشقَّة : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان:٢). وهو الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال ، فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . إنها أمانة التكليف ، وهي مسؤولية ما أثقلها!

وإنما ابتلى الله بني آدم بهذا التكليف ، ليصقلهم ويعدَّهم به في الدنيا للخلود في الآخرة ، دار البقاء . وقد هيَّأهم الله بما آتاهم من نعمة العقل ، ونعمة الإرادة ، وبما بعث لهم من الرسل ، وأنزل عليهم من الكتب .

التكليف فعلٌ وتَرْكٌ :

والتكليف فعلٌ وتركٌ ، لأنه أوامرُ ونواه . فما تُؤمر به مطلوبٌ أن يُفعل ، وما تُنهى عنه مطلوب أن يُترك ، وإن اختلفت مراتب الطلب .

وهكذا كلُّ منازل الطريق إلى الله إنما هي فعل وترك .

الورع والزهد يدخلان في جانب الترك :

و(الورع) و(الزهد) يدخلان في باب الترك والاجتناب في أصلهما .

إذ (الورع) في حقيقته هو ترك ما حرَّم الله ، أو ترك ما نهى الله عنه ، أو ما لا يُحبُّه الله من عباده ، وهذا ضربٌ من عبادته سبحانه ، فليست كلُّ العبادات شعائر ومناسك يُتقرَّب بها إلى الله سبحانه ، بل منها : اتِّقاء ما يُغضبه تعالى من الأقوال والأفعال ، ظاهرة أو باطنة ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٠).

وهنا يأتي الحديث القائل : « اتقِ المحارم تكن أعبد الناس »[1]، فهنا يجعل الحديث عبادة الله مُجسَّدة في ترك المُحرَّمات « اتقِ المحارم ».

وفي بعض روايات الحديث : « كن ورعًا تكن أعبد الناس »[2]، فجاء بلفظ (الورع) .

وكذلك (الزهد) هو تركٌ أيضًا ، لأن حقيقته الإعراض عن متاع الدنيا وزخارفها ، رغبةً فيما عند الله جلَّ شأنه ، سواء كان زهدًا في الحرام ، أم في الشبهات ، أم في فضول الحلال . وبعبارة أخرى : هو ترك كل ما يشغل عن الله سبحانه .

تخليص مفهوم الورع والزهد من الشوائب والمحدثات :

وفي ضوء هذه المُسلَّمات نبحث في حقيقة كلٍّ من الورع والزهد ، لنعرف ما جاء فيها من هُدَى الله تعالى في كتابه ، ومن هَدْي رسول الله ﷺ في سنَّته وسيرته .

---

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥) ، وقال مخرِّجوه : حديث جيد ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي طارق السعدي ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٥) ، وقال : غريب ، وأبو يعلى (٦٢٤٠) ، والطبراني في الأوسط (٧٠٥٤) ، والبيهقي في الشعب باب إكرام الجار (٩٥٤٣) ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠) .

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٧) ، وأبو يعلى (٥٨٦٥) ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٧٥٠) ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٠) .

وما قاله علماء السلوك من سلف الأمة ، الذين يُقتدى بهم فيُهتدى ، قبل أن تشيع البدع ، وتنتشر الضلالات والمحدثات ، حتى يتبيَّن الحقُّ ، وتتَّضح الغاية ، ولا يلتبس الطريق على السائرين .

الميزان الذي لا يميل والمعيار الذي لا يضل :

على أن كلَّ ما ننقله من أقوال ، وما نقصُّه من قَصص ، وما نسوقُه من مواقف ، يلزمنا أن نردُّه إلى الميزان الذي لا يميل ، والمعيار الذي لا يضلُّ ، وهو المحكمات من كتاب ربِّنا ، ومن سنة نبينا : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران:١٠١) ، لأنَّ أقوال الخلق وأعمالهم ـ وإن كانوا من الزاهدين الصَّالحين ـ ليست حُجَّة في دين الله ، لأنَّ الخطأ جائز عليهم ، ولا معصوم إلا مَن لا ينطق عن الهوى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٤) ، ولا سيما في هذا المقام ، فالغلوُّ فيه متوقَّع ، والشطط فيه وارد ؛ لأنه أمر يتعلق بالوجدان الإنساني ، وبخاصَّة أنه دخلت عليه مفاهيم وقِيَم من أمم وديانات وفلسفات أخرى غير الإسلام ، فأثَّرت في طريقه ، وفي أهله ، شئنا أم أبينا .

لذا كان من المهم هنا : أن نُخلِّص المفهوم الإسلامي المحض من الشوائب التي اختلطت به ، لنعيده إسلاميًّا ربانيًّا قرآنيًّا محمديًّا . وهو الذي يلزمنا أن نتَّبعه ، ونسير على هداه . وسنقسم بحثنا أو كتابنا هذا إلى قسمين : قسم للورع ، وآخر للزهد .

التخلية قبل التحلية :

وسنبدأ (بالورع) لأنه سابق على الزهد ؛ لأنه كالمقدِّمة له ، أو لأن الورع يمثِّل التخلية ، والزهد يمثِّل التحلية ، والتخلية تسبق التحلية .

ولذا روى ابن الأعرابي في كتابه (الزهد وصفة الزاهدين) ، عن أبي سليمان الداراني ـ وهو أحد أئمة التربية والسلوك ـ أنه قال : القناعة من الرضا بمنزلة الورع

من الزهد . قال : فهذا أول الرضا . يعني : القناعة . وهو أول الزهد . يعني : الورع[1] .

وروى ابن الأعرابي أيضًا ، عن عثمان بن عمارة قال : كان يُقال : الورع يبلغ بالعبد إلى الزهد في الدنيا ، والزهد يبلغ به إلى حُبِّ الله[2] !

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٦٥) ، وابن الأعرابي في الزهد (٢٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٤/٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٠١) ، وابن الأعرابي في الزهد (٦٢) .

obeikandl.com